

مبادئ الأخوة الإسلامية/ج1



إنّ مبادئ الإخوة الإيمانية الكفيلة بإقامة الوحدة.. وتعزيز أواصر المحبّة، وامتصاص عوامل الخلاف والقضاء عليها هي:

1- التواضع:

وإذا كان التكبّر عاملًا من عوامل الصراع، فإنّ التواضع لا بدّ أن يكون عاملًا من عوامل الوحدة، ولكن مَنْ يمتلك القدرة على التواضع؟ وكيف؟ ولماذا لا يتواضع كلّ الناس؟

إنّ المتكبّر يشعر بحقاره نفسه، ولذلك يحاول أن يسد هذا الفراغ بالتعالي على إخوانه وبواسطة الدنيا وعن طريق المال والقوّة، أمّا المؤمن الذي يشعر بقيمة الإيمان وبارتباطه بخلق السماوات والأرض، فإنه يشعر بالعزّة في نفسه ولا يجد داعيًا للتكبّر، إنّ الإيمان به هو الخطوة الأولى نحو التواضع.

ولعلّ الإمام الصادق (ع) يشير إلى هذه الحقيقة عندما يقول: "ما من رجل تكبّر وتجبر إلّا لذلة وجودها في نفسه" [1]. ولأنّ المؤمن يؤمّن بألوهية الله عزّ وجلّ، فإنّه يحافظ على ميزان علاقاته الأخوية المتساوية مع سائر البشر، فلا يخضع لعبادة أي أحد سوى الله، كما لا يحاول أن يستعلي ويفرض عبادة شخصه على أي أحد من الخلق، ولذلك يتوجّه إلى الله تعالى طالباً منه تصحيح العلاقة بينه وبين سائر إخوانه، والمحافظة على الميزان العادل في نفسه.

يقول الإمام زين العابدين (ع) في دعاء مكارم الأخلاق: "اللّٰهُمَّ وصلّ على محمدٍ وآلِهِ وارفع عنّي في الناس درجة إلّا حطّطتني عند نفسي مثلها، ولا تحدث لي عزّاً طاهراً إلّا أحدثت لي ذلة باطنية عند نفسي مثلها". حتى لا يشعر الإنسان المؤمن بأنّه أفضل من غيره وأحق بالعزّ والاحترام والتقدير، أو

إنّه من طينة أشرف وأسمى.

وينهى الإمام أبو عبد الله الصادق أصحابه من الشعور بالتعالي حتى بسبب الإيمان والعمل الصالح، فيقول: "إنما تعالي رفع بالإيمان مَنْ كان الناس يسمونه وضياعاً، إذا كان مؤمناً، ووضع بالكفر مَنْ كان الناس يسمونه شريفاً إذا كان كافراً، وليس لأحد فضل على أحد إلا بالتقوى" [2]. ومن هنا كان الإمام الصادق (ع) يوصي أصحابه بالتجاهله إلى العمل الصالح وتوثيق العلاقات معه، ويقول: "إن قدرتم أن لا تُعرفوا فافعلوا، وما عليك إن لم يشنِ عليك الناس؟ وما عليك أن تكون مذموماً عند الناس إذا كنت عند الله محموداً؟" [3].

وهكذا كان الإمام موسى الكاظم (ع) يوصي بالتواضع ويحذر من التكبر: "ما من عبد إلا وماتَه أخذ بناصيته فلا يتواضع إلا رفعه الله ولا يتعاطم إلى وضعه الله".

ويتوجه الإمام الصادق بقوّة لمعالجة مشكلة التكبر في صفوف الحركة العلمية والثورية التي نشطت في عهده وعلى يديه، فيحذر من اتخاذ العلم والثورة وسيلة للتكبر، ويدعو إلى التواضع، فيقول: "العزّ رداء الله والكبُر إزاره فمن تناول شيئاً منه أكبَه الله في جهنّم" [4]. ويقول: "مَنْ طلب الرئاسة لنفسه هلك، فإنّ الرياسة لا تُصلح إلا لأهلهما". وكذلك يقول (ع): "إذا أردت أن تقرّ عينك وتناول خير الدنيا والآخرة، فاقطع الطمع عما في أيدي الناس وعد نفسك في الموتى، ولا تحدّثن نفسك أنك فوق أحد من الناس وأخرن لسانك كما تخزن مالك" [5]. ويحذر بشدة: "إياكم وهؤلاء الرؤساء الذين يترأسون فواه ما حفقت النعال خلف رجل إلا هلك وأهلك" [6].

هؤلاء الذين يحذر الإمام زين العابدين (ع) منهم، ويقول: "انظروا إلى محبتهم للرؤسات الباطلة وزهدهم فيها، فإنّ في الناس مَنْ خسر الدنيا والآخرة، يترك الدنيا للدنيا ويرى أنّ لذة الرئاسة الباطلة أفضل من لذة الأموال والذّعم المباحة المحلاة فيترك ذلك أجمع طلباً للرؤسات، ويحرم من أجلها ما أحل الله ويجعل ما حرم الله لا يبالي لما فات من دينه إذا سلمت له رياسته التي قد شقي من أجلها" [7].

إنّ رسول الله يقول: "إنما تعلم العلم ليماري به السفهاء أو يباهی به العلماء أو يصرف وجوه الناس إليه ليعطيّهم فليتبّعوا مقعده من النار، فإنّ الرئاسة لا تُصلح إلا للأهلهما، ومَنْ وضع نفسه في غير الموضع الذي وضعه الله فيه مقته الله وَمَنْ دعا إلى نفسه فقال: "أنا رئيسكم" وليس هو كذلك لم ينظر الله إليه حتى يرجع عما قال ويتوّب إلى الله مما ادّعى" [8].

ويصف الإمام علي (ع) المؤمن فيقول: "المؤمن.. أذل شيء نفساً يكره الرفعة ويشنأ السمعة" [9].

وهكذا يربّي الإمام الصادق (ع) تلاميذه على التواضع وخاصةً أبناء الحركة الإسلامية، وطلائع الأمة وقادتها من العلماء والمجاهدين، سواءً التواضع فيما بينهم أو بين بقية الأمة، وذلك من أجل تمتين العلاقات الودودية الداخلية بين صفوف الحركة الإسلامية أو بين الطلعان المجاهدة وبين الأمة، فما أن يدب التكبر بين مؤمنين اثنين حتى ينسف العلاقات الأخوية بينهما ويفجر الصراع والتناحر بينهما، وكذلك الأمر بالنسبة إلى الأمة كلّها.

وغني عن القول إنّ مبدأ التواضع يترك بصماته في كثير من الأمور بحيث يقلب حياة الإنسان أو الحركة بصورة كلاية يجعلها أكثر ليونة وتألفاً واتحاداً مع الآخرين إذ أنّ التواضع نقىض الأنانية، ذلك المرض الذي يُنبت التكبر، ويسمّم كافة العلاقات الأخوية.

ومن الأمور المهمة التي تتأثر بالتواضع أو التكبر السياسة الإعلامية للشخص أو الحركة، فإذا كان متواضعاً اتسمت السياسة الإعلامية بحب الآخرين والخجل من مدح الذات، والابتعاد عن الرياء والتفاخر والمباهلة وتضخيم الأعمال، في حين تسارع إلى تغطية نشاطات الأخوة المؤمنين الآخرين وتکيل لهم المديح وتعظم صفاتهم أعمالهم الطيبة.

يقول الإمام الصادق (ع): "لا يصير العبد عبداً خالماً عزّوجلّ؛ حتى يصير المدح والذم عنده سواء، لأنّ الممدوح عند الله عزّوجلّ لا يصير مذوماً بذمهم وكذلك المذموم، فلا تفرج بمدح أحد فإنّه لا يزيد في منزلتك عند الله ولا يُغريك عن المحكوم والمقدور عليك ولا تحزن أيضاً بذم أحد فأنت لا ينقصك عنك به ذرة، ولا يحط عن درجة خيرك شيئاً، واكتف بشهادة الله تعالى لك وعليك، قال الله عزّوجلّ: (وَكَافَى بِسَالِلَّهِ شَهَيدًا)".

وقال (ع): "وَمَنْ لَا يَقْدِرُ عَلَى صِرَاطِ الْمَدْحِ عَنْ نَفْسِهِ وَلَا يُسْتَطِعُ عَلَى تَحْقِيقِ الْمَدْحِ لَهُ، كَيْفَ يَرْجِعُ مَدْحَهُ؟ وَيَخْشَى ذَمَّهُ؟، وَاجْعَلْ وَجْهَ مَدْحُوكَ وَذَمْكَ وَاحِدًا، وَقَفْ فِي مَقَامِ تَغْتِيمَتِهِ بِمَدْحِ الله عزّوجلّ لِكَ وَرَضَاهِ، فَإِنَّ الْخَلْقَ خُلِقُوا مِنَ الْعَجَنِينَ مِنْ مَاءِ مَهِينَ، فَلَيْسَ لَهُمْ إِلَّا مَا سَعَوا، قَالَ الله عزّوجلّ: (وَأَنْ لَيْسَ لِلْإِنْسَانِ إِلَّا مَا سَعَى) (النجم/39). وَقَالَ الله عزّوجلّ: (وَلَا يَمْلِكُونَ لَأَنْفُسِهِمْ حَدَرًا وَلَا زَفْعًا وَلَا يَمْلِكُونَ مَوْتًا وَلَا حَيَاةً وَلَا زُسْعُورًا) (الفرقان/3)[10].

ويعلّمنا الإمام أمير المؤمنين عليّ (ع) أن لا نفتر بالدعایة الكاذبة، فيقول: "ربّ مفتون به سُن القول فيه" [11].

ويعلّمنا تذكرة عيوبنا التي يجهلها المادحون والخوف من الله: "اللَّهُ أَعْلَمُ بِنَفْسِي وَأَنَا أَعْلَمُ بِنَفْسِي مِنْهُمْ" أجعلنا خيراً مما يظنون، واغفر لنا ما لا يعلمون، ولا تُحاسبنا بما يقولون" [12].

هذا هو التواضع، أمّا المتكبّر فإنّه يفرح بالمدح ويُسر ويُطالب بالمزيد وقد يعتُبُ إذا قصر المادح عن بعض ألقابه، أو غفل عن ذكر بعض بطولاته.

ويمكّننا اكتشاف الفرق بين التواضع والمتكبّر بسهولة من خلال ذكر اسمه مقروناً بصفة العلم والثورية والجهاد، فإذا رحّب بذلك فإنّ ذلك يعني انطواءه على شيء من التكبر، وإذا امتعض واستحبّ ولم يبال سواءً ذكرنا اسمه مجرّداً أو مبجّلاً، فإنّه يدلّ على مدى التواضع والإخلاص في قلبه.

إنّ الإعلان عن النفس وطرح الذات من أجل الله، ومن أجل نشر الدّين وقيادة المسلمين أمر جائز ومشروع ولكن التنافس الإعلامي مع المؤمنين ومحاولته طمس ذكرهم والتعميم على نشاطاتهم، لا يدل إلّا على روح التكبر والاستعلاء، وهو كفيل بإثارة حسدهم وغيظهم ودفعهم إلى القيام برد الفعل والدخول في معارك إعلامية تجرّ وراءها معارك يدوية و المسلحة، أليس كذلك؟.

هذا إذا لم يتحول الإعلام إلى سياسة الهجوم وتتبع عيوب الآخرين وفضحهم وإسقاطهم من المجتمع، من أجل الفوز بالزعامة والسلطة وما يتراك ذلك من آثار وخيمة على الوحدة الإسلامية بين العاملين، ودفعهم لانتهاش لحوم إخوانهم والتورط في معارك جانبية خطيرة.

ومن هنا كان ضروريًا بالنسبة لسياسة التواضع والكف الإعلامي الالتفات إلى عيوب الذات، والغضّ عن عيوب الآخرين، واحترام أعراض وحرمات المؤمنين.. "فكلّ سعي أخلص عنده من سعيه وكلّ نفس أصلح عنده من نفسه".

يقول الرسول الأعظم محمد (ص): "كفى بالمرء عيبياً أن يبصر من الناس ما يعمى عنه من عيوب نفسه، وأن يغير الناس بما لا يستطيع تركه" [13].

وفي مقابل ذلك يدعو الإيمان بالإنسان المؤمن التواضع إلى الدفاع عن حرمة إخوانه المؤمنين، والذبّ عن كرامتهم وأعراضهم.

يقول الإمام الصادق (ع): "مَنْ اُغْتَبَ عَنْهُ أَخْوَهُ الْمُؤْمِنُ فَنَصَرَهُ وَأَعْنَاهُ، نَصَرَهُ إِنَّمَا فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ، وَمَنْ لَمْ يَنْصُرْهُ وَلَمْ يُدْفَعْ عَنْهُ وَهُوَ يَقْدِرُ، خَذْلَهُ إِنَّمَا وَحْقُّهُ فِي الدُّنْيَا وَالْآخِرَةِ" [14].

لا للعصبية:

وهناك جانب آخر للتواضع هو التمسك المتيقن بقيمة الإيمان، وعدم تفضيل أية رابطة عائلية أو قومية أو طائفية أو حزبية عليها.. ونبذ أية حمية جاهلية.. ذلك لأنّ "المتكبر" عادة ما يلجأ إلى قيمه الجاهلية ويتمسك بشرف قبيلته أو قومه أو قئته.. ويتعصّب لهم ويتفاخر بهم في محاولة للاستعلاء على الآخرين.. وينخلق وبالتالي بذلك المصراعات القبلية أو القومية أو الحزبية في المجتمع ويهدد وحدة المؤمنين.

ولذلك تعتبر مكافحة العصبية خطوة على طريق التواضع والسلام الاجتماعي والوحدة.. ويعتبر التواضع مبرءاً من أي نوع من العصبية الجاهلية.

وإذا حلّ الإيمان.. ظهر التواضع وارتحل التعصّب..

يقول الرسول الأكرم: "مَنْ كَانَ فِي قَلْبِهِ حَبَّةً مِنْ خَرْدَلٍ مِنْ عَصَبَيَّةٍ بَعْثَهُ إِنَّمَا يَعْلَمُ يَوْمَ الْقِيَامَةِ مَعَ أَعْرَابَ الْجَاهْلِيَّةِ" [15].

ويفسّر الإمام زين العابدين معنى العصبية فيقول: "العصبية التي يأثم عليها صاحبها أن يرى الرجل شرار قومه خيراً من خيار قوم آخرين، وليس العصبية أن يحبّ الرجل قومه ولكن من العصبية أن يعين قومه على الظلم" [16].

وكثيراً مَنْ نشاهد في المجتمع وربما في داخل صفوف الحركة الإسلامية، تعصّب البعض لأفكار مختلفة أو رجال معينين، تختلف عليها وعليهم الأُمّة.. ويكون التعصّب لها ولهم سبباً من أسباب الصراع والتناحر وتمزيق أوامر الأخوة، والإيمان تبعاً لذلك، بحيث يؤدي بأصحابه إلى الخروج عن إطار الإسلام.

الاستشارة:

وإذا كانت الفردية والديكتاتورية والعجب من سمات التكبر، فإنّ الاستشارة وقبول النصح والشوري من سمات التواضع، وعلامة من علام الإيمان، وإذا كانت الديكتاتورية سبباً في تمزيق أوصال المجتمع وإثارة الاضطرابات، فإنّ الاستشارة والشوري تزيد في تقوية أوامر الوحدة.

ومن هنا يعالج أئمة أهل البيت (ع) مشكلة العجب والديكتاتورية، خطوة على طريق معالجة مشكلة التكبر الكبri، وتعبيد طريق التواضع. يقول الإمام الصادق: "مَنْ دَخَلَهُ الْعَجْبُ هُلَكَ" [17]. ويقول الإمام الهاudi: "مَنْ رَضِيَ عَنْ نَفْسِهِ كَثُرَ السَاخِطُونَ عَلَيْهِ" [18].

وبعد أن يحطم أهل البيت (ع) الغرور والعجب في نفس الإنسان المؤمن يدعونه إلى المرحلة الثانية وهي الاستشارة واحترام آراء الآخرين وقبول النصح. يقول الإمام أمير المؤمنين (ع): "مَنْ اسْتَبَدَ بِرَأْيِهِ هُلَكَ". و"مَنْ شَأْرَ الرِّجَالَ شَارَكَهَا فِي عَقْوَلِهَا، وَمَنْ اسْتَقْبَلَ وُجُوهَ الْأَرَاءِ عَرَفَ مَوْاقِعَ الْخَطَا".

إنّ الترحيب بالنقد من كلّ أحد حسن، ولكن من الحكم أحسن، وإنّ الاستشارة من كلّ أحد جميلة، ولكنّها من الخليفة أجمل، وعندما يقوم بها من يجمع العلم والقوّة، فإنّها تعتبر قمة في التواضع واللين أمام الشعب، ومن النادر أن يفتح الحكم صدره لتقبل النقد والتوجيه، ومن الأندر أن يدعو الناس بنفسه للقيام بذلك، ولكن هذا ما صنعه الإمام أمير المؤمنين عليّ ابن أبي طالب (ع) لكي يعلم

تلامذته على مدى التاريخ أن يتواضعوا، ويتواضعوا بالرغم من معاذلات القوّة والمال، يقول:

"إن" من أسف حالات الولاة عند صالح الناس أن يظن بهم حبّ الفخر، ويوضع أمرهم على الكبر وقد كرهت أن يكون حال في ظنككم أنتي أحبّ الإطراء واستماع الثناء ولست بحمد الله كذلك، ولو كنتُ أحبّ أن يقال ذلك لتركته انحطاطاً سبحانه، عن تناول ما هو أحق به من العظمة والكبراء، وربما استحلى الناس الثناء بعد البلاء فلا ثثنا علىـ بجميل ثناء لإيجاري نفسي إلى الله وإليكم، من البقية في حقوق لم أفرغ من أدائها وفراهن لابدّ من إضافتها فلا تكلّم بما تكلّم به الجباره ولا تحفظوا مني بما يتحفظ به عند أهل البداره، ولا تخالطوني بالمصانعه، ولا تذهبوا بي استقالاً في حقّ قيل لي ولا التمامس إعطام لنفسي فإنّه من استقلال الحقّ أن يقال له أو العدل أن يعرض عليه كان العمل بهما أثقل عليه، فلا تكفووا عن مقالة بحقّ أو مشورة بعدل، فإنّي لست في نفسي بفوق أن أخطئه ولا آمن بذلك من فعلي ولست بفوق أن أؤمر بالمعروف أو أنهى عن المنكر، إلا أن يكفي الله من نفسي ما هو أملك به مني فإنّ ما أنا وأنتم عبيد مملوكون لربّ لا ربّ غيره يملك منّا ما لا نملك من أنفسنا وأخرجنا مما كنّا فيه إلى ما صلحنا عليه، فأبدلنا بعد الضلال بالهدى، وأعطانا بصيرة بعد العمى" [19].

لقد ربط الإمام هنا في هذه الرائعة بين منطلق التواضع الذي هو العبودية لله، ورفض التجاوز في الاستيلاء، على حقوق الله من التعطيم والتجليل، وبين دعوة الأئمة إلى ممارسة دورها السياسي في مواجهة الحاكم، وإبداء النصح والمشورة، والأمر بالمعروف والنهي عن المنكر، وبين خشيته من نفسه وبين أن يُخطئه، وحشاوه من ذلك وعلى أي حال، فإنّ تواضع الحاكم يضفي على الدولة طابع الاستقرار السياسي ويمتص غضب الأئمة، ويفتح أمامها قناعة للتصحيح والتعبير عن آرائهم، وإنّ إذا كبت الحاكم حرّية النقد والتوجيه، استعلاءً وتكبّراً، ورفض تصحيح أي خطأ أو انحراف، بل وأصرّ عليه، فإنّ ذلك يفتح باب الصراع ويمزّق الوحدة الإسلامية.

2- الكرم والإيثار:

وينطلق من معنيين الإيمان، والثقة بالله، فيزرع في قلوب المؤمنين الود والمحبة، ويقتلع في طريقه أشواك الحسد والبغضاء من القلب.

وذلك لأنّ المؤمن يزهد في الدنيا ولا يقيم لها وزن جناح بعوضة، ثمّ هو يؤمن أنّ إيمانه يتناقض مع الشح والحسد.

"إن" أصول الكفر ثلاثة: الحرص والاستكبار والحسد، وإياكم والبخل، ولا تحاسدوا" [20].

ولا يكتفي أهل البيت (ع) باقتلاع الشّح والحسد من قلوب المؤمنين بل يحضّونهم على العطاء والإيثار والمواساة، يقول رسول الله (ص): "لا تزال أمةٌ تخير ما تحابوا وتهادوا وأدوا الأمانة واجتنبوا الحرام وقرروا الصيف وأقاموا الملاة وآتوا الزكاة فإذا لم يفعلوا ذلك ابتلوا بالقطن والسنين" [21].

إذن فإنّ الإنفاق والإيثار شرط رئيسي من شروط الانتماء للحركة الرسالية الثورية، وهو كفيل بتعزيز الروابط الأخوية وترسيخ الوحدة.

ولا يقتصر الإنفاق على الأموال الشخصية، وإنما يعمّ أية حاجة مادّية ولذلك كان موضوع قضاء الحاجات للإخوان موضوعاً يركّز عليه أهل البيت (ع) بشدة.

يقول الإمام الحسين (ع): "إِنَّ حَوَائِجَ النَّاسِ إِلَيْكُمْ مِّنْ نَعْمٍ إِنَّمَا عَلَيْكُمْ فَلَا تَمْلِئُوا النَّعْمَ" [22]. ويقول الإمام الصادق (ع): "إِنَّ عَبَادَةَ فِي الْأَرْضِ يَسِعُونَ فِي حَوَائِجِ النَّاسِ وَهُمُ الْآمِنُونَ يَوْمَ الْقِيَامَةِ" [23]. أمّا الإمام زين العابدين فيسأل الله تعالى في دعائه إذا دخل شهر رمضان: "اللَّهُمَّ وَفِقْنَا فِيهِ لَنْ نَصِلْ أَرْحَامَنَا بِالْبَرِّ وَالصَّلَةِ، وَأَنْ نَتَعَااهُدْ جِبْرَانَنَا بِالْأَفْضَالِ وَالْعَطْيَةِ، وَأَنْ نَخْلُصْ أَمْوَالَنَا مِنَ التَّبعَاتِ وَأَنْ نَطْهُرَهَا بِإِخْرَاجِ الزَّكَوَاتِ".

يتبَعُ . . .

الهُوَا مُشَ

[1] - بحار الأنوار، 225/70.

[2] - بحار الأنوار، 299/70.

[3] - بpear الأنوار، 121/70.

[4] - بpear الأنوار، 213/70.

[5] - بpear الأنوار، 168/70.

[6] - بpear الأنوار، 150/70.

[7] - بpear الأنوار، 185/71.

[8] - بpear الأنوار، 147/74.

[9] - بpear الأنوار، 304/64.

[10] - بpear الأنوار 294/70.

[11] - بحار الأنوار، 295/70.

[12] - بحار الأنوار، 294/70.

[13] - بحار الأنوار، 386/70.

[14] - بحار الأنوار، 262/72.

[15] - بحار الأنوار، 284/70.

[16] - بحار الأنوار، 288/70.

[17] - بحار الأنوار، 209/69.

[18] - بحار الأنوار، 316/69.

[19] - بحار الأنوار، 309/74.

[20] - بحار الأنوار، 254/71.

[21] - بحار الأنوار، 206/68.

[22] - بpear الأنوار، 318/71.

[23] - بpear الأنوار، 319/71.